الأنساق الثقافية المضمرة وقضايا الهامش – 2 –

1– في النسق والنسق الثقافي

لعلّه من الأهمية مناقشة مفهوم النسق، والنسق الثقافي في ضوء علاقته بموضوعة ونماذج الهامش ، ولأن هذه الدراسات (أدب الهامش) تستند إلى مقولات التحليل الثقافي أو ما يطلق عليه أحيانا النقد الثقافي، ذلك أن دراسة قضايا وصور الهامش تعتمد على تحليل الأنساق الثقافية المضمرة ذلك ان تلك الأنساق في اعتبار النقد الثقافي لن تكون إلا مضمرة، ومن وضعيتها هذه يكتسب التأويل والتشريح جمالية خاصة عند دراسة النصوص، بالإضافة إلى آليات القراءة التي تحتاج بدورها إلى معرفة معمّقة بأطر الخطاب الثقافي وأبعادها المعرفية.

تنوعت التعريفات التي ناقشت مفهوم النسق، فعرفه تالكوت بارسونز بأنه نظام ينطوي على افراد مفتعلين تتحدد علاقتهم بعواطفهم وادوارهم التي تنبع من الركوز المشتركة والمقررة ثقافيا في إطار هذا النسق وعلى نحو يغدو معه مفهوم النسق أوسع من مفهوم البناء الاجتماعي[1] فالنسق عموما هو انتظام بنيوي يتناغم وينسجم فيما بينه ليولد نسقا أعم وأشمل وعلى سبيل المثال يوصف المجتمع بأنه نسق اجتماعي عام ينتج عنه مجموعة انساق فرعية انتظمت معه وشكّلته فتولد عنه نسق سياسي وآخر اقتصادي وعلمي وثقافي، تنسج علاقاتها فيما بينها في مسافات متفاعلة ومتداخلة "[2].

وما دام النسق انتظاما بنيويا فإنه في هذا المفهوم يصبح أعم وأشمل من البنية " لأن النسق البنوي مظهر من مظاهر النسق العام فقد يكون هذا النسق مغلقا كما تطرحه البنوية الصورية وقد يكون مفتوحا كما هو الشأن بالنسبة إلى المناهج النقدية الأخرى مثل السيميائيات والتأويليات المعاصرة، وتبعا للتصورات التي تقدمها القراءة للنسق تتحدد طبيعته"[3] .

ومن هذا التصور تجد الدراسات التي اشتغلت على قراءة الأنساق الثقافية مجالا منفتحا على التأويل وهذا النسق يخضع بدوره إلى شروط موضوعية تتمثل في الجوانب الاجتماعية والثقافية"[4] ومن ثم يبدو الترابط واضحا بين الخاص والعام حيث أن النص بوصفه نسقا لا ينفصل عن نسقه العام " ولعل اوضح مثال على يمكن تقديمه في هذا السياق عمل فلاديمير بروب[5]

فنسق الحكاية مرتبط بالنسق السردي العام وهذا ما حاولت ان تطوره النظرية السردية"[6] ونظرا لتداخل الانساق فإنها تشكل نظاما من العلاقات تتميز بمرجعية خاصة ،ولذلك يمكننا أن نعدّ النسق الثقافي باعتباره أحد انواع الأنساق الاجتماعية بأنه مجموعة من العلاقات المترابطة والمنسجمة قابلة للانتقال من جيل إلى جيل في ثقافة من الثقافات، لما لها من مرونة ومرجعية دلالية خاصة.

كما يمكنها أن تكون ظاهرة أو مضمرة أي تختفي في اللاوعي الفردي والجماعي .ومن ثم فالنسق الثقافي هو مجموعة آليات معرفية وفكرية لفئة اجتماعية ما أو لإيديولوجيا مترابطة ومتمايزة ومتفاعلة تخص المعارف والفنون والأخلاق والمعتقدات واللغة وغيرها من أنساق المجتمع وتتصف بالمرونة في الانتقال بين الأفراد والجماعات والأجيال ، كما أنه سريع التأثير في الخطابات الاجتماعية.

يعدّ ليفي شتراوس من أوائل الذين نقلوا مصطلح " النسق" إلى الحقل الثقافي في دراسته " الأنثربولوجيا البنيوية 1957 " مؤكدا على وجود كلي أو شامل وعالمي سابق على الأنساق أو الأنظمة الفردية للنصوص/ فظاهرة اللغة والثقافة ذات طبيعة واحدة الثقافة ، بينما اقترح إيكو مصطلح الوحدة الثقافية ، وهي أي شيء يمكن أن يعرّف ثقافيا ويميز بوصفه وحدة مستقلة ، قد يكون شخصا ، مكانا ، شعورا ، حالة ، توجسا بالشر، خيالا ، هلوسة فكرة . ونظر إيكو إلى الوحدة الثقافية بوصفها وحدة دلالية سميائية مدمجة في نظام وقد تتجاوز هذا النظام إلى التفاعل بين ثقافتين[7]

فالنسق (الثقافي) في هذه الحالة هو وحدة ثقافية دالة داخل حقل من الوحدات يتطابق مع تلك التي تحيل عليها العلامات " وفي هذا الأفق فإن الثقافة في كليتها ينظر إليها باعتبارها نسق من أنساق العلامات حيث يصبح داخلها مدلول دالٍّ ما دالا لمدلول جديد كيفما كانت طبيعة النسق(كلام، موضوعات ،سلع،أفكار، قيم، أحاسيس ،إيماءات، أو سلوكات...إن الثقافة هي الطريقة التي يتم بها تفكيك النسق داخل ظروف تاريخية وانثروبولوجية بعينها ضمن حركة تمنح المعرفة بعدا موضوعيا وهذا التجزيء يتم على كل المستويات بدء من الوحدات الادراكية الأولية وانتهاء بالأنساق الإيديولوجية"[8] " .

بينما ينتهي " محمد مفتاح" إلى ملاحظة "أن المفهوم الملائم في الأنساق الثقافية المفتوحة هو التأرجح والأنموذج وان المنهاجية الشمولية إذا حللت عناصر كل بنية وكشفت عن خصائصها واهتدت غلى القوانين التي تحكمها ثم استخلصت الوظيفة الجامعة بينها فغنها تؤدي إلى الكشف عن نظام العناصر وانتظامها وإلى إحلال كل عنصر مرتبته ودرجته ضمن النسق العام"[9]

وفي سؤاله عن ماهية النسق الثقافي ذهب الغذامي إلى تحليل عناصره ومكوناته ورأى في اعتبار النسق الثقافي كذلك وجوب توفر مجموعة من الشروط الجمالية والمعرفية، و " يكتسب قيما دلالية وسمات اصطلاحية خاصة تتحدد في :

- أن النسق يتحدد عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرد والوظيفة النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أمظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضا وناسخا للظاهر، ويكون ذلك في نص واحد أو فيما هو في حكم النص الواحد ويشترط في النص أن يكون جماليا وان يكون جماهيريا ....وإنما الجمالي ما اعتبره الرعية الثقافية جميلا [10]"

ولمراجعة هذا الشرط الاول في تحديد النسق الثقافي، يمكن ان نشير إلى أن الجمالية قد لا تتحقق في كثير من النصوص ورغم ذلك فإنها قد تحمل أنساق ثقافية مضمرة قابلة للقراءة والتاويل ثقافيا ، ففي الخطابات الإشهارية على سبيل المثال ورغم انها تحمل مقصدية اساسية ممثلة في الترويج للسلع لأجل تسويقها مما يعني أن تتوفر فيها المباشرة والوضوح غير أنها في كثير من الأحيان تأتي محملة بأنساق ثقافية مضمرة حيث نجد الكثير من النصوص الترويجية لمستحضرات التجميل تقدم المرأة ضمن نسق ثقافي مضمر يجعل منها مجرد سلعة تروذج للإغراء تماما مثلما تصوره بعض النصوص الجمالية في توظيف الإغراء لمجرد الإغراء.

- "الشرط السابق يقتضي إجرائيا (عند الغذامي دائما) أن نقرأ النصوص والأنساق قراءة خاصة باعتبارها حالة ثقافية، والنص هنا ليس فحسب نصا أدبيا وجماليا ولكنه أيضا حالة ثقافية."
- النسق من حيث هو دلالة مضمرة فإن هذه الدلالة ليست مصنوعة من مؤلف ولكنها منكتبة ومنغرسة في الخطاب مؤلفتها الثقافة ومستهلكوها جماهير اللغة ..
- النسق هنا ذو طبيعة سردية يتحرك في حبكة متقنة ولذا فهو خفي ومضمر وقادر على الاختفاء دائما ويستخدم أقنعة كثيرة ...
- الأنساق الثقافية أنساق تاريخية وراسخة ولها الغلبة دائما...
- النسق تورية ثقافية تشكل المضمر الجمعي .[11]

والنسق عند فوكو ما هو إلا علاقات تستمر وتتحول بمعزل عن الأشياء التي تربط بينها ويرى أنه يمثّل فكرا قاهرا قسريا مغفل الهوية وهو أيضا نظرية كبرى تهيمن في كلّ عصر على الكيفية التي يحيا بها البشر"[12]فحديث فوكو عن هيمنة النسق يوضح طبيعة الاشتغال على موضوعات الهامش وتحليلها ثقافيا ذلك لأنها وردت ضمن ثنائيات ضدية ذات طابع اجتماعي كالفوقية والدونية والمركز والهامش وغيرها .

ومن خلال الإشارات السابقة للنسق الثقافي فإن قراءة الأنساق تتجه إلى تحليل ودراسة العلاقة بين النص (أي نوع من أنواع النصوص) والمجتمع الذي ينتمي إليه بالاتجاه إلى التحليل الثقافي وتتّبع مضمرات الثقافات وحفرياتها " فقد اخترع "غرينبلات Greenblatt jay Stephen هذا المصطلح(*) في بداية الثمانينات ليبين من خلاله الإجراءات القرائيةالتي طورها مع مجموعة من زملائه الذين ينتمون إلى هذه المدرسة الجديدة مثل "لوي مونتروز Louis Montrose ريتشارد هيلغرسن Richard Helgerson " لتأويل المظاهر التي كانت قد تشكلت من خلا البحث حول كتاب عصر النهضة.

وقد أشار غريبلانت إلى أن التحليل الثقافي في ضوء علاقته بالسياقات الاجتماعية يفهم ضمنا على شكل خارطة مرسومة داخل المدار أو الفلك الجمالي الذي يمكننا بدوره من رصد بعض الدلالات التصويرية لهذه الخارطة"[13]. ويشترك لوتمان مع إيكو باعتبار المصطلح "دالا على تاريخ

الثقافة والأدب والفكر الاجتماعي بصورة عامة ، وهذا يقتضي جعل الأنساق الثقافية تنتظم في ترتيب تتابعي عبر عصور التاريخ المختلفة ووصف أنماط تحديد الخاصية الكلية الجامعة للثقافة الإنسانية بشكل عام" [14] هذا الترتيب التتابعي من شأنه أن يُنتج مع الزمن وبفعل التكديس أنساقا ثقافية تمتلك سلطة إنتاج جماليات الخطاب الثقافي وذلك ما أشار إليه فوكو عندما اعتبر " هذه السلطة ليست مجرد تشكيل للعلاقات الاجتماعية من خلال عملية ديناميكية داخل المنتج الثقافي ولكنها أساس منطقي شمولي في عملية التصوير الجمالي لأشكال هذه السلطة في الخطاب الثقافي والتي لا تظهر إلا بالاستقراء"[15] .

وأصبح مفهوم "النسق" متضمنا أبعاد النص كافة ومكونا لأسس تلقيه وتأويله وسبل التفاعل معه، فالنسق الثقافي من الركائز التي تميز مشروع النقد الثقافي عند ليتش(Leitch)،إذ يشتغل النقد على أنظمة الخطاب الظاهرة والمضمرة للكشف عن الأنساق الثقافية"[16] ، لأن بنيات النص الثقافية والاجتماعية ترتبط بسياقاته التي كُتب فيها لتستمر في أزمنة أخرى فتنتج أبعادها من داخل الأنساق الخفية والمحمّلة في ذلك النص.

ولعلّ هذا ما ذهب إليه سعيد يقطين عندما رأى "أن النص يكتب في زمن تاريخي ويتحدد هنا الزمن بسياق اجتماعي وثقافي محددين ولا يمكن لانتاج الكاتب النصي أن يكون خارجا عن السياق الذي يتفاعل معه إيجابا أو سلبا قبولا أو رفضا وهذه البنيات المنتج في زمنيتها التاريخية هذا النص تتجلى لنا ضمنيا أو مباشرة في النص ذاته لذلك يجب أن نقراها من داخل النص ذاته"[17] .

لكن الكشف عن الأنساق المضمرة إنما يتجه إلى تأويل النص باعتباره بنية ثقافية تمارس سلطة الهيمنة وتوجيه الخطاب من خلال ما اشتمله من وحدات ثقافية،" والنص هنا علامة ومؤشر بخطاب مزدوج والمؤسسات الاجتماعية هنا لا تروض رعاياها عبر فرض القيود عليهم فحسب بل إنها تقرر سلفا الوسائل التي بها يقاومون تلك القيود.... ولقد حدث أن المؤسسة الثقافية الذكورية ازدادت قوة واتساعا مع نشوء المقاومة النسوية لها ، لأن الأخيرة تستمد وسائلها من خطاب الهيمنة ذاته"[18] .

غير أنه ينبغي الإشارة إلى أن انتاج خطاب الهيمنة ممثلا في أنساقه وبنياته المختلفة لم يكن وليد النصوص القديمة فقط مادام الغذامي قد اشتغل على النص العربي القديم، فالخطاب الكولونيالي منذ القرن السابع عشر ظل ينتج سردياته التي بررت وسوغت فكرة الهيمنة ويكفي أن نشير إلى دراسة إدوارد سعيد في الثقافة والامبريالية و هومي ك باب في موقع الثقافة، حيث تكرست نسقيات الهيمنة وغيرها من أشكال التهميش، إذ يرى صاحب موقع الثقافة أن الخطاب الكولونيالي "جهاز يدير معرفة الاختلافات العرقية/ الثقافية /التاريخية وإنكارها وتتمثل وظيفته الاستراتيجية المسيطرة في خلق فضاء لـ"شعوب خاضعة " عبر إنتاج معارف تُمَارَس من خلالها المراقبة ويُثَّار شكل معقد من اللذة ...أما عاية الخطاب الكولنيالي فهي أن يؤول المستعمَرين بوصفهم شعوبا من أنماط منحطة بسبب من أصلهم العرقي وذلك لكي يبرر فتح هذه الشعوب ولكي يقيم بين ظهرانيها أنظمة الإدارة والتوجيه"(19) .

ووفق هذه المنظومة المختصرة من التعريفات وباعتبار أن الأنساق الثقافية بنى مضمرة في الخطابات المختلفة، فإنها تكمن خلف النص الجمالي الرسمي أو الشعبي لتكشف ترسبات مضمرة تكدست مع تاريخ ولغة مجتمع ما من المجتمعات لتحمل أفكارا وتصورا ت لها صفة الهيمنة والتسلط ، وعند الحديث عن قدم الأنساق المضمرة فليس بالضرورة ان يكون قدما لازمنة طويلة لأنه يمكن إنتاج خطابات ترويضية تسعى لتوجيه عوالم الهامش المبنية على اعتبارات فوقية مُختلقة.

وأبرز مثال على المنتجات الثقافية والجمالية للخطاب الكولونيالي، أو توجيهات الخطاب الإعلامي المعاصر والمبني على علاقات المركزيات المعاصرة وسعيها للهيمنة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، ولذلك يمكن تصنيف الأنساق المضمرة ونقصد منها هنا الثقافية تحديدا إلى أنساق دينية وأخرى سياسية و اجتماعية واقتصادية ...، وبطبيعة الحال فهذه المجموعات من الأنساق تتخفى في بنى لسانية عند توظيفها في الخطابات المختلفة .

ولذلك فإن التشكيلات الخطابية ورغم مظهرها اللساني فإنها تظل محتفظة بعلاقاتها التاريخية والفكرية إلى جانب إدراجها ضمن مؤسسات معرفية أو اجتماعية "حيث يتم إبراز الكيفية التي تتكامل بها مختلف النصوص المتناولة بالدرس، وكيف تنتظم في صورة فريدة وتلتقي

بمؤسسات وممارسات ، وتحمل دلالات تكون مشتركة بين نصوص العصر كلّه فكل عنصر ينظر إليه على أن فيه تعبيرا عن كلية كاملة ينتمي إليها لكنها كلية تتجاوزه..فكل خطاب يخفي داخله القدرة على أن يقول غير ما قاله وأن يغلف أيضا عددا كثيرا من المعاني وهذا ما يسمى بوفرة المدلول بالنسبة للدال الواحد والوحيد وعليه فإن الخطاب امتلاء وثراء لا حد لهما"[20] .

قراءة خطابات الهامش لا يمكن أن تنعزل عن قراءة الأنساق الثقافية المضمرة التي مارست هيمنتها على النصوص باعتبارها مؤسسات جمالية ومن ثمد فإن النسق المضمر يضل يحتفظ بوحداته وعلاماته الثقافية التي يحيل إليها وهو ما يحتاج إلى قراءة ثقافية لمختلف الأنساق المبنية على ثنائيات ضدية .

تختزن النصوص المختلف مجموعة أنساق لا يمكن حصرها في خطابات او فضاءات محددة ذلك لأنها تتميز بخاصية الشمولية ولذلك سنقتصر في هذا التبسيط على ما يحلل موضوعات ونماذج الهامش ونقصد الأنساق الثقافية المضمرة، باعتماد الثنائيات الضدية في قراءة الوحدات الثقافية المختلفة .

الهوامش :

1–ايديث كويزيل. تـ جابر عصفور. عصر البنيوية.دار سعاد الصباح. الكويت ط1993/1 .ص 411

2–محمد مفتاح التشابه والاختلاف. المركز الثقافي العربي .بيروت. 1996 . ص 156–157

3–أحمد يوسف .القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة.ص :116

4–أحمد يوسف .القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة .ص: 121

5– شجعت اللسانيات البنوية الخطاب النقدي انطلاقا من فكرة الكلية والعلاقة التي تجمع عناصر النص الأدبي وقد وجدت هذه الفكرة صداها في أعمال مبكرة أنجزها فلاديدير بروب في دراسته المورفولوجية للحكاية الشعبية العجيبة عن طريق تحديده لوظائف النص الحكائي وشموليتها حتى أضحت منطلقا يكاد يكون قارا في بنية الحكاية مما دفع كلود ليفي شتراوس إلى المضي في تطبيق هذا المنهج تطبيقا عكسيا على الأسطورة.وعلى الرغم من التباين المنهجي في الطرح إلاذ ان المتغى واحد فسواء أكان الإجراء المورفولوجي الذي طبقه بروب أفقياأم البنوي الذي طبقه لبفي شتراوس عموديا فإن النتيجة واحدة وهي الإقرار بمبدأ النسق العام الذي اتصف في الغالب الأعم بالانغلاق. انظر أحمد يوسف القراءة النسقية ص 120–123

6–أحمد يوسف .القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة ص :120

7– د.ضياء الكعبي. السرد العربي القديم.، الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل. ص:21

8–أمبرتو إيكو. العلامة .تحليل المفهوم وتاريخه.ص:177

9–أحمد يوسف. القراءة النسقية ،سلطة البنية ووهم المحايثة ص :143

10–الغذامي .النقد الثقافي ص: 80

11–بتصرف عن : الغذامي النقد الثقافي ص:82–83

12– عبد الله حبيب التميمي و سحر كاظم حمزة الشجيري.دونية المراة في المجتمع الجاهلي وفوقيتها في الشعر. مجلة بابل .العلوم الإنسانية.مجلد 22 ع:2014/2.ص:315

* – المصطلح المقصود "التحليل الثقافي " أو "التاريخانية" : من أبرز الاتجاهات النقدية في مرحلة ما بعد البنيوية غذ اخذ هذا الاتجاه في التنامي مع مطلع الثمانينيات ومن أبرز أعلامه ستيفن غرينبلات والذي عرف بدراساته التاريخانية حول أدبيات عصر النهضة من خلال ما أيماه شعرية الثقافة " المرجع نفسه ص : 27 ويشير الغذامي إلىتعريف قريب من هذا لطن يستعمل مصطل الجماليات الثقافية أو التاريخانية الجديدة انظر : الغذامي . النقد الثقافي.ص:34–45

13– يوسف عليمات. جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي أنمذجا. ص 27 * المصطلح المقصود : التاريخانية الجديدة و التحليل الثقافي.ص:27

14– ضياء الكعبي السابق .ص : 22

15– يوسف عليمات. جمايلات التحليل الثقافي . يوسف عليمات .جاليات التحليل الثقافي. ص : 28–29

16– ضياء الكعبي. السابق .ص 22

17– سعيد يقطين .انفتاح النص الروائي، النص والسياق.ص : 34

18– الغذامي النقد الثقافي. ص : 47

19–هومي ك.باب.موقع الثقافة .ص : 141

20– ميشال فوكو.حفريات المعرفة.ص: 110